الدرس الثاني والعشرون

تفسير سورة الجن [١ :٤]

سورةً عظيمة، وسميت هذه السورة بهذا الاسم لأنَّ سبب نزولها استماع الجن للنبي ﷺ؛ ولأنَّ معظم آياتها تتعلق بهم وبحكاية أقوالهم رحمهم الله، ورضي عنهم.

مقاصد السورة: تضمنت هذه السورة التي لا تبلغ ثلاثين آية مقاصد عظيمة منها:

- بيان حقيقة القرآن وعظمته وحفظه.
- بيان طبيعة الجن، وبيان طرائقهم، ونفي الخرافات المتعلقة بهم.
- تجريد التوحيد، بأنواعه الثلاثة.
- بيان وظيفة النبي ﷺ.

كل هذه المقاصد العظام مضمنةٌ في هذه السورة، وأذكر أني قرأت قديمًا قصة رجلٍ من المنصرين كان يعمل في مصر ضمن إرساليةٍ من الإرساليات التنصيرية اسمه روكس معكرون وكتب قصته هذه في كتيبٍ، كان يسعى لتشكيك المسلمين في دينهم وكتابهم ونبيهم، يقول: تساءلت من أين أدخل على المسلمين؟ كيف أشككهم وأوهن ثقتهم بدينهم؟

يقول: فنظرت في فهرس القرآن فإذا من سور القرآن سورةٌ اسمها سورة الجن، فقلت: هذا مدخلٌ مناسب، القرآن يتضمن ذكر الخرافات والعفاريت، فسأتخذ من هذه مدخلًا للتشكيك، وعزمت أن أسهر ليلتي تلك في الكتابة في هذا الموضوع انطلاقًا من هذه السورة التي تتحدث عن الجن والعفاريت، هكذا خُيِّل

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

إليَّ.

يقول: فلما كان من الليل وتهيئت، وتفرغت، وفتحت المصحف وإذا بي أقرأ، ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا﴾[الجن:١-٣]، وأنه، وأنه.

يقول: فداخلني رهبةٌ شديدة وخشوع، وانهمرت عيناي بالدموع، وتأثرت تأثرًا بليغًا وأسلمت. أسلم من جراء قراءة هذه السورة لما وجد فيها من المعاني العظيمة، والمقاصد الجليلة! القرآن يعلو ولا يُعلى عليه. أراد أن يفسد دين المسلمين، أراد أن يشككهم بدينهم من خلال هذه السورة فأبى الله إلا أن تكون هذه السورة سببًا لإسلامه. وصار بدلًا من أنه يبشر بالنصرانية صار يدعو إلى الإسلام، فتبارك الله رب العالمين.

يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾[الجن:١]: و(قُل) هذا خطابٌ وأمرٌ للنبي ﷺ، وفي هذا دليلٌ على أن جميع القواقل من ألفاظ القرآن، وليست خارجةً عنه، كما أُثِر عن بعضهم أنه كان يقرأ ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:١]، ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١]، ولا يذكر (قُل)، والصحيح أن هذه القواقل جزءٌ من سورها ومن ألفاظ القرآن.

وليس لهذا نظيرٌ في القرآن (قُلْ أُوحِيَ)! لكن لما كان الحدث مستغربًا غير مألوف؛ أن يحدث إنسٌ عن جن، أن يحدث النبي عن الجن، أراد الله تعالى أن يؤكد صحة الإسناد ووثوقيته بأن يأمر نبيه بأن يقول: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾، فالنبي ﷺ مثله

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

مثل سائر الآدميين لا يرى الجن، ولا يسمعهم، ولا يخاطبهم، لكن الله تعالى أخبره باستماعهم إليه، وسنذكر بعض النصوص الواردة في هذا. فالمقصود ان الله ﷻ أمر نبيه أن يخبر بهذا الخبر ﴿ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾[الجن:١].

قوله: {أَنَّهُ اسْتَمَعَ}: (استمع) فرقٌ بين السماع والاستماع، يعني أنهم أرخوا أسماعهم قصدًا فالسماع أمرٌ قهري، أما من سمع كلامًا دون قصده فهو سامع. وفي الآية الأخرى عبر بقوله: ﴿أَنْصِتُوا﴾[الأحقاف:٢٩]، فالإنصات والاستماع معناهما متقارب؛ ولهذا قال ربنا ﷻ:﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾[الأعراف:٢٠٤]، فالإنصات يقتضي الإمساك عن الكلام الذي يشوش على السمع، فإن الإنسان لا يتم له الاستماع والاستيعاب حتى ينصت ويمسك عن الكلام. بخلاف من يقرع طبلة أذنه ويقول ذلك منتهاه، وقدم الله تعالى قومًا يستمعون القرآن فلا يأبهون له، ويستمعون الذكر فلا يأبهون له، قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾[محمد:١٦].

قوله: ﴿نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾، والنفر جماعةٌ دون العشرة، وهذه الآية وغيرها تدل دلالةً قطعية على وجود الجن، فمن أنكر الجن فقد كذب القرآن، فإن بعض الماديين والملاحدة ينكر ما لا يراه، فينكر وجود الجن، فمن أنكر وجود الجن فقد أكذب القرآن، ومن أكذب القرآن فقد كفر.

فلا ريب أن الله تعالى خلق الجن والإنس، قال ربنا ﷻ:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فالجن قسيم الإنس، نحن وإيَّاهم

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

نعمر الأرض، لكن الله تعالى جعل الله لنا خصائص وأوصاف وجعل لهم خصائص وأوصاف، فنحن لا نراهم وهم يروننا، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف:٢٧]، وكل من ادعى أن رأى جنًّا أو رسم صورةً للشيطان فهو متهوكٌ، لا صحة لكلامه، ولكن قد تتلبس الجن ببعض الحيوانات كالقطط، والكلاب، والحيّات، كما أخبر النبي ﷺ، أمَّا الجن بصفته التي خلقه الله عليها فإن الآدميين لا يرونهم.

فلا بُدَّ من الاعتقاد الجازم بوجود الجن وأنهم خلقٌ من خلق الله مكلفون، مأمورون، منهيون، مثابون، معاقبون، تجري عليهم أحكام الشريعة. والراجح أنه ليس فيهم رسل ولا أنبياء، ولكن فيهم نُذُرٌ ودعاة، كما قال ربنا ﷻ في آيةٍ أخرى تصدق هذه الآية وتشابهها:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾[الأحقاف:٢٩].

ففيهم نُذُر، وهم مطالبون باتباع نبي زمانهم.

وقد وقع في الفترة بين زمن عيسى عليه السلام وزمن نبينا ﷺ، إرهاصات لبعثة نبينا ﷺ منها أن السماء صارت ترمي بالشُهُب على من يسترق السمع إذ أن من خصائص الجن التمكن من الارتفاع في أجواز السماء، واتخاذ المقاعد فيها، واستراق السمع.

وكان بين الجن وبين الكهنة صلة، فكانوا يسترقون السمع من السماء ويلقونه في أّذن الكاهن فيخلطها الكاهن بتسعة وتسعين كذبة، ويدخل فيها هذه الكلمة التي التقطها من مسترق السمع من الجن ويُحدث بها، فإذا وقع الحق الذي بلغه، قال

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الناس: أليس قد قال يوم كذا كذا وكذا، فيروج سوق الكهان. وقد حذر النبي ﷺ من إتيان الكهان، والعرافين، وقال: (من أتى كاهنًا أو عرافًا فقد كفر بما أُنزل على محمد)[1]؛ لأنهم يستعينون بالجن ويدعون علم الغيب.

فالمقصود ان الله ﷻ أمر نبيه أن يخبر بهذا الخبر ﴿ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾[الجن:١].

فهؤلاء النفر تلبسوا بالحالة التي يتمكنون فيها من استقبال الخبر والانتفاع به؛ ولهذا لما حصل منهم هذا التكيف وهذا الإنصات والاستماع أطلقوها صريحةً مدوية، ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، فوصفوا القرآن بالعجب، أي والله! إنه لقولٌ عجيب، قولٌ عظيم، قولٌ مهيب. مجرد سماعه، لمن شرح الله صدره، وأنار بصيرته، يهز أركانه، ويحرك أشجانه، وينقله إلى معانٍ ساميةٍ راقية؛ ليس كأي كلام، ليس ككلام الكهان، ولا أهل السجع، ولا الشعر، ولا غيرها من أنواع البديع والبيان؛ بل هو نوعٌ مستقل في نظمه، ولفظه، وأعظم من ذلك معناه.

ومما ورد من الآثار المروية في استماع الجن إلى النبي ﷺ.

عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا، قَالَ: (مَا قَرَأَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمُ انْطَلَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ

[1] أخرجه أحمد رقم (١٠١٦٧)، والترمذي رقم (١٣٥)، وابن ماجه رقم (٦٣٩).

حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِّ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} [الجن: ٢]، فَأَنْزَلَ اللهُّ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ} [الجن: ١] وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ)(٢).

وروى الإمام أحمد أيضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: (كَانَ الْجِنُّ يَسْمَعُونَ الْوَحْيَ فَيَسْتَمِعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَزِيدُونَ فِيهَا عَشْرًا، فَيَكُونُ مَا سَمِعُوا حَقًّا، وَمَا زَادُوهُ بَاطِلًا، وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَأْتِي مَقْعَدَهُ إِلا رُمِيَ بِشِهَابٍ يُحْرِقُ مَا أَصَابَ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ، فَقَالَ: مَا هَذَا إِلا مِنْ أَمْرٍ قَدْ حَدَثَ فَبَثَّ جُنُودَهُ، فَإِذَا هُمْ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْ نَخْلَةَ، فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الْحَدَثُ الَّذِي حَدَثَ فِي الْأَرْضِ)(٣).

وذكر محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن محمد بن كعبٍ القرظي قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إيّاهم إلى الله ﷻ وإيبائهم عليه، فذكر القصة بطولها، القصة المشهورة، وأورد ذلك الدعاء الحسن الذي فيه (اللَّهُمَّ إليكَ أشْكو ضَعفَ قُوَّتي وقِلة حيلَتي وهَواني على الناسِ يا أرحَمَ الراحِمينَ، أنتَ أرحَمُ

(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٧٣)، ومسلم رقم (٤٤٩)، متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه أحمد رقم (٢٤٨٣)، والنسائي في الكبرى رقم (١١٦٢٦)، والترمذي رقم (٣٣٢٤).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الراحِمينَ، وأنتَ ربُّ المُستضعفينَ، إلى مَن تَكِلُني إلى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُني يَلْقاني بالغِلْظةِ والوَجهِ الكَريهِ، أمْ إلى صَديقٍ قَريبٍ مَلَّكْتَه أمْري، إنْ لم يكُنْ بك غَضَبٌ عليَّ فلا أُبالي، غيرَ أنَّ عافيتَكَ أوسَعُ لي، أعوذُ بنورِ وَجْهِكَ الذي أضاءَتْ له السمَواتُ، وأشرَقَتْ له الظلُماتُ، وصلَحَ عليه أمرُ الدُّنيا والآخِرةِ أنْ يَنزِلَ بي غضَبُكَ، أو يَحِلَّ بي سَخَطُكَ، ولكَ العُتْبى حتى تَرْضى، ولا حَولَ ولا قُوةَ إلَّا بكَ)»[٤]، قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، وادي نخلة فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين، بلدةٌ في شمال العراق شمال الموصل، يقال لها نصيبين.

قال ابن كثير: وهذا صحيح، ولكن قوله: أن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر؛ لأنّ الجن كان استماعهم بابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنةٍ أو سنتين.

وهذا يدلنا على أن استماع الجن وقع لأكثر من مرة؛ بل الأحاديث الأخرى تدل على أن مجيء الجن إلى النبي ﷺ تكرر. ومن ذلك:

أنزل على النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم وهو ببطن نخلة، (فَلَمَّا حَضَرُوهُ) قال: كانوا تسعة أحدهم زَوْبَعَة فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾

---

[٤] أخرجه الطبراني رقم (١٤٧٦٤)، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٦/ ١١١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٩/ ١٥٢) باختلاف يسير، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (١١٨٢)، وقال الأرنؤوط في تخريج زاد المعاد (١/ ٩٦)، رجاله ثقات إلا أن فيه تدليس ابن إسحاق.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

[الأحقاف:٢٩]، إلى قوله: ﴿ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[الأحقاف:٣٢] في سورة الأحقاف(٥).

ومما روي في ذلك أيضًا ما رواه الإمام أحمد عن علقمة، قال: (قلت لعبد الله بن مسعود، هَلْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجِنِّ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟ فَقَالَ: مَا صَحِبَهُ مِنَّا أَحَدٌ، وَلَكِنَّا قَدْ فَقَدْنَاهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقُلْنَا: اغْتِيلَ؟ اسْتُطِيرَ؟ مَا فَعَلَ؟ قَالَ: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَلَمَّا كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ - أَوْ قَالَ فِي السَّحَرِ - إِذَا نَحْنُ بِهِ يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ حِرَاءَ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَكَرُوا الَّذِي كَانُوا فِيهِ، فَقَالَ: " إِنَّهُ أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَأَتَيْتُهُمْ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ "، قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا، فَأَرَانِي آثَارَهُمْ، وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ قَالَ: وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: سَأَلُوهُ الزَّادَ، قَالَ ابْنُ أَبِي زَائِدَةَ: قَالَ عَامِرٌ: فَسَأَلُوهُ لَيْلَتَئِذٍ الزَّادَ، وَكَانُوا مِنْ جِنِّ الْجَزِيرَةِ، فَقَالَ: " كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ، أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ، فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنِّ)(٦).

وفيه أيضًا أن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: (مَنْ أَحَبَّ منكُمْ أنْ يَحْضُرَ أمْرَ الجنّ اللَّيْلَةَ فَلْيَفْعَلْ". فلم يحضر منهم أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة، خطّ لي برجله خطا، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فغشيته أسودة كبيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي

(٥) تفسير الطبري: (٢٢/ ١٣٥).

(٦) أخرجه مسلم رقم (٤٥٠)، والترمذي رقم (٣٢٥٨)، وأحمد رقم (٤١٤٨)، واللفظ له.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

منهم رهط، ففرغ رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم مع الفجر، فانطلق متبرّزا، ثم أتاني فقال: وما فَعَلَ الرَّهْطُ؟ قلت: هم أولئك يا رسول الله، فأخذ عظما أو روثا أو جمجمة فأعطاهم إياه زادا، ثم نهى أن يستطيب أحد بعظم أو روث)[٧].

وقد ذكر ابن القيم: في طبقات المكلفين ذكر الطبقة الثامنة عشرة، وهي طبقة الجن وذكر من خصائصهم وحقائقهم ما ينبغي أن يكون المعول عليه ولا يُلتفت إلى ما سواه مما يتحدث به الناس، ويتداولونه من مروياتٍ ومخالفات.

﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ [الجن: ٢]، أعجب ما في القرآن هدايته للرشد بما فيه من المعاني العظيمة الجليلة الدالة. ليس أعظم ما في القرآن هو ما يحصل به من التطريب للآذان والانسجام، هذا أحد آثاره، فإن القرآن تحلو تلاوته ويحلو سماعه، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[المزمل:٤]، كما جاء في الحديث: (زيِّنوا القرآنَ بأصواتِكم، فإنَّ الصوتَ الحسنَ يزيدُ القرآنَ حُسنًا)[٨]، لكن ما هو أعظم من ذلك بكثير تدبر ما فيه من المعاني الجليلة، الشريفة، القيمة، التي بها انثلاج الصدور وطمأنينة النفوس والقلوب.

والرشد هو الحق والصواب وهو ضد الغيّ، والغيّ هو الضلال والسفه، ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[الجن:٢]، هذا هو الأثر المباشر للاستماع الحق، فأولى درجات العلم هي الاستماع، من لا يستمع ويصغي وينصت لا يتعلم؛ ولهذا قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ

(٧) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٨).

(٨)أخرجه البخاري معلقاً قبل حديث رقم (٧٥٤٤)، وأخرجه موصولاً أبو داود رقم (١٤٦٨)، والنسائي رقم (١٠١٥)، وابن ماجه رقم (١٣٤٢)، وأحمد رقم (١٨٥١٧) مختصرا، والحاكم رقم (٢١٢٥) واللفظ له.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧]، فإذا أردت أن تنتفع من المواعظ والعظات والعلوم النافعات، فافتح قلبك، وألق سمعك لكي تحصل الذكرى. فالأُذن منفذ إلى القلب، فلا بُدّ من إرخاء السمع، والإنصات، والإقبال لكي يستقر المعنى فتنتفع

ولهذا نهى النبي ﷺ يوم الجمعة أن يقول الرجل لصاحبه: أنصت، وقال: (إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَغَوْتَ)[٩]، فلا ينتفع بالموعظة وبذكر الله التي تكون في خطبة الجمعة إلا من استمع وأنصت، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[الجمعة:٩]، فلا يحصل ذكر الله في القلب إلا بالإنصات وعدم التشاغل؛ لهذا حصل لهؤلاء النفر المؤمنين هذه النعمة العظيمة، فورًا دون تردد، بمجرد أن سمعوا صراحة الحق وبيانه أعلنوا إيمانهم وتوحيدهم ونبذهم للشرك، ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[الجن:٢].

لقد أدركوا بمجرد سماعهم للقرآن حقيقة التوحيد، وأن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر إلا من مستحقٍ للعبادة وحده دون ما سواه؛ لأنه كلامٌ مميز، ليس ككلام المخلوقين، فلا بُدَّ أن يكون قائله هو الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، هكذا استنبطوا! لله دَرَّهم! فقالوا: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[الجن:٢]، أحدًا: نكرةٌ في سياق النفي فتفيد العموم، يعني كائنًا من كان.

قوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا﴾[الجن: ٣].

---

(٩) أخرجه البخاري رقم (٩٣٤)، ومسلم رقم (٨٥١).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

استنبطوا بمجرد سماعهم للقرآن أن قائله حقيقٌ بالتعظيم؛ ومعنى {جَدُّ رَبِّنَا} أي: شأنه وأمره وفعله، وجلاله وآلاؤه، وقدرته ونعمه، كل هذه الالفاظ قال بها السلف، ابن عباس وغيره.

قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا﴾، لازم وحدانيته التنزه عن الصاحبة أي: الزوجة والولد؛ لأنه لا يليق بالواحد الأحد أن يكون له زوجة ولا أن يكون له ولد، لأن من شأن الزوجة أن تكون من جنس زوجها، ومن شأن الولد أن يكون امتدادًا لأبيه وهذا يتنافى مع الوحدانية، فالواحد الذي لا مثيل له، ولا ند له، ولا كفء له، ولا نظير له، لا يمكن أن يكون له صاحبة ولا أن يكون له ولد.

وربما دعاهم إلى التنزيه رحمهم الله ورضي عنهم؛ لكون هذه المقالة شائعةً في الإنس والجن، أي: اتخاذ الزوجة والولد، فقد ذكر الله لنا في مواضع عدة، مقالة المشركين ومقالة اليهود النصارى، فقال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة:٣٠]، وقال الله تعالى نافيًا هذه الدعوة الباطلة ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾[المؤمنون:٩١].

زعموا أن الله اتخذ زوجةً من الجن أنجبت له الملائكة، {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} [الصافات: ١٥٨]، وقال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾[الزخرف:١٥]، فزعموا أن الملائكة بنات الله هذا زعمٌ مشركي العرب، فهذه المزاعم كلها تتنافى مع تعظيم الرب تعالى جَده سبحانه وبحمده.

هكذا قادهم الإيمان والتوحيد إلى تعظيم الرب ﷻ وإجلاله، وخشيته، ومحبته. التوحيد الصحيح، التوحيد الصِرف، التوحيد المجرد، يُثمر في القلب هذا التنزيه، تنزيه الله عن النقائص والعيوب ومماثلة المخلوقين.

قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ سفيه الجن هو إبليس، وإبليس من الجن كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[الكهف:٥٠]، وقيل: أن المقصود

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

بالسفيه هنا اسم جنس، يعني كل من سفه نفسه من الجن ، أي: وقع في الطيش، والعجلة، والنزق، والقول بلا علم فهو سفيه، فقد كان سفيههم يقول على الله شططًا، والشطط هو الجور، القول الباطل الفاسد.

فلعل في هذا إشارة إلى أن بعض الجن كانوا يقولون كما يقول بعض الإنس بالولد والزوجة لله، تعالى الله عما يقولون، لكن هؤلاء المؤمنين الذين وقر الإيمان في قلوبهم وذاقوا حلاوته لما آمنوا تبرؤوا من هذه المقالة ونفوها، وذموها، ووصفوا قائلها بالسفه.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله